العلوم عند العرب

(تتمة ما سبق)

واما التاريخ فاول من كتب فيهِ من العرب ابو جعفر محمد بن جرير الطَبَريّ من اهل القرن الثالث وتاريخهُ يبتدئ من الخلق وينتهي الى سنة ٣٠٢ للهجرة وهو كتابٌ كبير من اصحّ التواريخ واثبتها . وكانت نُسَخ هذا الكتاب قد فُقدت ثم وُجد الجانب الاكبر منهُ وشُرع في طبعهِ في مدينة لَيدِن سنة ١٨٧٩ ولهُ نسخةٌ فارسية تُرجمت الى الفرنسوية سنة ١٨٣٦ . ومن معاصريهِ اليعقوبي المعروف بابن واضح ولهُ تاريخٌ عامٌ ينتهي الى خلافة المعتمد . ثم ابن خرداذبه المذكور قبل وتاريخهُ من اجمع الكتب واحسنها ترتيباً . ومن اشهر مؤرخيهم بعد ذلك ابن الاثير الجَزَري من رجال القرن السادس ولهُ كتاب الكامل وهو تاريخ عامّ انتهى فيهِ الى سنة ٦٢٨ . ومنهم ابو الفدآء صاحب حماة ولهُ التاريخ المختصر المشهور انتهى فيهِ الى سنة ٧٤٩ . ومنهم ابن خلدون فيلسوف المؤرّخين وهو وليّ الدين عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرميّ من اهل القرن الثامن ولهُ التاريخ المشهور الموسوم بكتاب العِبَر وديوان المبتدا والخبر في ايام العرب والعجم والبربر وهو كتابٌ كبير صدّرهُ بمقدّمةٍ طويلة تنيف على خمس مئة صفحة هي من اجلّ ما كُتب في فلسفة التاريخ تكلم فيها على طبيعة العمران وما يعرض فيهِ من البدو والحضر والتغلب والكسب والمعاش والصنائع والعلوم واحوال السياسة والدول الى غير ذلك مما دلّ على غزارة

مادّته وبُعد غورهِ وحنكته في السياسة ورسوخ قدمهِ في اكثر العلوم التي كانت لعهدهِ . وتاريخهُ هذا من افضل ما كُتب في تاريخ البربر وانسابهم واخبار دولهم وعاداتهم وفيهِ من بسط الكلام على ملوك النصارى بالاندلس ما لا يوجد في سواهُ وقد تُرجم كثيرٌ منهُ الى لغات الافرنج . ومن مشاهير مؤرخيهم صاحب نفح الطيب في غصن الاندلس الرطيب وهو احمد بن محمد المَقَّريّ المغربي التلمساني من اهل القرن الحادي عشر للهجرة وتاريخهُ مشهور جمع فيهِ اقوال من سلفهُ من مؤرخي الاندلس واضاف اليها ما لم يذكروهُ وبسط الكلام فيهِ على وصف مدن الاندلس واهلها ومشاهير ملوكها وامرآئها وعلمآئها وادبآئها وما تقلب عليها من الدول وتعاورها من الحِدثان منذ افتتحها العرب الى ان خرجت من ايديهم وهو اكمل تاريخ لمدة العرب في الاندلس

والمؤرخون من العرب كثيرون منهم من كتب في التاريخ العام ومنهم من كتب في تاريخ مملكةٍ او دولة ومنهم من اقتصر على تراجم مشاهير الاعلام فوفَّوا كل ذلك حقهُ ولم يكن ما يؤخذ عليهم سوى انهم قلما كانوا يحفلون بتحقيق الحوادث وانتقاد ما يقع اليهم من الاخبار ولذلك كثرت في تواريخهم الخرافات والمستحيلات وقد نبه على ذلك ابن خلدون فيما اخذهُ على المؤرخين في مقدّمة كتابه على انهُ لما انتهى الى تدوين وقائع التاريخ لم يسلم من مثل ما اخذهُ عليهم والكمال لله

ومن العلوم التي تكلموا فيها العلم الطبيعي اخذوهُ عن مصنفات ارسطو وغيرهِ من متقدمي اليونان ولم يصل الينا في هذا العلم كتابٌ مخصوص

ولكنهم ادمجوا بعض مسائلهِ في كتب الفلسفة وعلم الكلام فتكلموا على الاجسام والجواهر في البحث عن اقسام الموجودات وذكروا الاعراض الذاتية القائمة بالجسم في الكلام على اقسام الكيف فبحثوا عن الحرارة مثلاً في الكلام على الملموسات وعن النور والالوان في الكلام على المبصرات وعن الاصوات والنغم في الكلام على المسموعات وشرحوا الحيز والحركة والسكون في الكلام على الاين الى غير ذلك . على انهم في اكثر هذه المباحث لم يتعدّوا حدود النظر والقياس ولذلك ربما وقع لهم في بعضها الخطأ الفاحش كزعمهم ان الماء اذا انجمد صغر حجمهُ واذا ذاب عاد الى حجمهِ الاول وهو خلاف الواقع كما تدلّ عليهِ التجربة ولكنهم قاسوهُ على المتعارَف في سائر الموادّ

هذا اشهر ما يُذكَر من حال العلوم عند العرب اوردناهُ بغاية ما يمكن من الايجاز مع الاقتصار على كليات العلوم دون جزئياتها وفروعها اذ لا يخفى ان الكلام على علوم امةٍ من الامم مما لا يحيط بهِ الا المجلدات الكثيرة فضلاً عن ان يُستوفى في مقالة . وانما قصدنا في هذه اللمحة الالماع الى ما احدثتهُ العرب في العلوم التي تلقّوها عن اليونان وبيان ما كان لهم فيها من الاثر الناطق بمزيتهم ولذلك كان اكثر حرصنا على تتبع ما امكن الوصول اليهِ من مبتكراتهم في هذه العلوم او ما استدركوا فيها على المتقدمين من تصحيح او تكميل مما ثبتت صحتهُ وتناولهُ الخَلَف من بعدهم . على ان ما ذكرناهُ من ذلك قد لا يكون الا شيئاً من اشياء ولكن هذا ما امكن الظفر بهِ بعد طول التنقير والتنقيب وما نكتم المطالع ان اكثر ما

اثبتناهُ في هذا الفصل مقتبسٌ عن كتب الافرنج لانا لم نجد في الكتب العربية التي بين ايدينا ما فيهِ غناء

ولما كان غرضنا من هذه المقالة ما ذُكر لم نتعرض للكلام على العلوم الدينية واللسانية لانها من العلوم الخاصّة ولا ما بُني على الاوهام مما نفاهُ العلم الصحيح من بعدهم كالسحر والطِلَّسمات وعلم اسرار الحروف والرمل والجفر والزايرجة والسيمياء وعلم الاكتاف وتعبير الاحلام وما اشبه ذلك لان هذه كلها لا تُعَدّ في شيءٍ من العلم ولا تدل على فضل المشتغلين بها بل هي ولا جرم نقصٌ فيهم وتضليلٌ لغيرهم . وربما اهملنا الكلام على غير ذلك من العلوم كالحِيَل وهي الميكانيك والفلاحة وهندسة البناء والرسم والموسيقى وعلم تدبير المنزل والسياسة المدنية وغيرها لان من هذه العلوم ما لم تصل الينا كتبهُ ومنها ما ليس بين ايدينا من كلامهم فيهِ ما يكفي للوقوف على مكانهم منهُ . على ان فيما ذكرناهُ غنىً عما لم نذكرهُ اذ المقصود بيان منزلة القوم من تاريخ العمران البشري وما كان لهم من اليد في خدمة العلم ورفع منارهِ وتوفير مادّتهِ واحياء آثارهِ

وقد رأيت من كل ما تقدم ان دولة العلم عند العرب كانت دولةً رفيعة العماد فسيحة الظلال حافلةً بالالوف من الدارسين والباحثين والمصنفين والعاكفين على الاكتشاف والاستنباط والضاربين في مناكب الارض بحثاً عمّا اودعتها الطبيعة من الآثار والنافضين لآفاق السماء تطلعاً الى ما هنالك من الاسرار لم يدعوا علماً الاولهم فيهِ يدٌ ولا بحثاً الاولهم اليهِ قدمٌ فضلاً عما كان فيهم من الخطباء والشعراء والادباء والكتاب وما كان عندهم من

بديع الصنائع وغريب الفنون واتساع التجارة ونموّ الزراعة وكان العلم مصاحباً لجنودهم في كل بلادٍ وطئتها حوافر خيلهم وافتتحوها بسيوفهم حتى امتدّت حضارتهم من اطراف آسيا الى اقاصي افريقيا وقلب اوربا . أجَلْ ان من تتبع العلوم التي كان العرب يتداولونها بينهم وجدها باسرها مقتبسةً عن كتب اليونان الا قليلاً اقتبسوهُ عن كتب الهند والفرس لم يثبت انهم وضعوا علماً ولا احدثوا في احد العلوم فرعاً مهماً ولكنهم اوضحوا مبهماتها ووسّعوا مباحثها وصحّحوا كثيراً من مسائلها ولو لبث الدهر مسالماً لهم الى هذا اليوم لم يبعد أن كانوا بلغوا ما بلغ غيرهم ممن تناولوا علومهم وصنائعهم ونزلوا منها منزلتهم . ولسنا نزيد المطالع علماً ان مدة اشتغال العرب بالعلم لم تكن الا بضع مئاتٍ من السنين كانوا قبلها بقليل اهل نجعةٍ وخيام وألّاف باديةٍ وأنعام فما كادوا يألفون تلك العلوم ويتصرفون فيها تصرف اهلها بعد ان قضوا السنين الطوال لا يزيدون على تفهم مغازيها وحل مشكلاتها حتى اضطرب حبل دولتهم وانتقضت احوال جامعتهم فوقفوا وهم في اوائل شوطهم ولا شك ان مثل هذه المدة القصيرة مع الحال التي وصفناها لا تبلغ امةٌ فيها زيادةً على ما بلغتهُ العرب واذا تتبعت علوم اليونان وجدت انهم لم يصلوا منها الى المبلغ الذي اخذتهُ العرب عنهم الا بعد ان اتت عليهم آلافٌ من السنين والذين خلفوا العرب من الافرنج انما بلغوا هذا الشوط البعيد في هذا الزمن القصير لانهم تلقوا العلم في مدارسهم وتلقنوهُ عن افواههم ونقلوا كتبهُ الى ألسنتهم مشروحةً مبسوطة المسائل فلم يقف في سبيلهم ما يستوقف خطواتهم عن بلوغ الغاية التي ترمي اليها

همهم وفضلاً عن ذلك فقد اخذوا عنهم كثيراً من المصنوعات كالورق والبارود والسكر والخزف والزجاج وتصفية المعادن وتركيب الادوية وفنونٍ من النساجة والدباغة وغير ذلك وعلى الجملة فقد تناولوا تمدنهم تاماً بحيث انهُ لم يتقوض بنآؤهُ عند العرب الا وقد قامت حجارتهُ بعينها عند مجاوريهم

اما كتب العرب فهلك اكثرها في الحروب والغارات فمنها ما اتلفهُ العرب انفسهم كمكاتب الاندلس التي يقال ان المنصور احرق اكثرها وسائرها احرقهُ الافرنج عند استيلآئهم على مدن الاندلس وكمكتبة بغداد التي اغرقها هولاكو في دجلة ومكتبة الفاطميين في مصر التي نهبتها جنود الاتراك ثم اختطفتها منهم عرب البادية فمزقتها واستعملت جلودها نعالاً وتركت الباقي في الصحرآء حتى دفنتهُ الرمال وما بقي بعد هذه الجوائح وامثالها استولت عليهِ ايدي الافرنج شيئاً بعد شيء كما لا يزال الحال الى يومنا هذا وعمرت بهذه البقية مكاتب اوربا

وقد فُقد ولا شك في تلك الكتب شيءٌ كثير من العلم ولكن لا نخال ان هناك علماً ذهب من اصلهِ كما يتوهم بعض المغالين في امر هذه الحوادث فانا لا نظن انها كانت تشتمل على غير ما يشبه العلوم الباقية ولا ذهب بها شيءٌ يُفتقَر اليهِ في جنب العلم الحاضر وان كان ثمة شيءٌ لا يعوَّض فلا يكون الا من قبيل التواريخ والتراجم واوصاف البلاد والابنية وغيرها مما درستهُ الايام ومن نحو دواوين الشعر والخطب واشباهها من مبتكرات القرائح وهي ولا ريب مما فُقد منهُ شيءٌ كثير . على اننا مهما قدّرنا الخطب فيها صغيراً تسليةً وتهويناً فلا اقل من ذهاب اسمآء كثيرٍ من مصنفي تلك

الكتب واندراس ذكرهم وكانوا ولا شك الوفاً كثيرة من العلمآء والمصنفين ممن كانوا فخراً لهذه الامة وعنواناً على عظيم مجدها وارتقآئها في سلّم المدنية والعلم . على ان ذهاب تلك الكتب لم يكن مما يؤسف عليهِ لو بقيت الامة جاريةً في سبيل سلفها ولا ذهابها هو الذي حطّ الامة من منزلتها وذهب بعلومها ولكن الرزء كل الرزء ما ابتُليت بهِ الامة من الخمول والقعود وما توالى عليها من التدابر والشقاق وتعاورها من تسلط يد الاجنبيّ دهراً بعد دهر حتى اضمحلّ العلم منها على التوالي ولم يبقَ منذ مئاتٍ من السنين ما يُذكَر الا علوم الدين قُصِرت عليها الهمم ووقفت عندها المدارك وتحيزت بها حلقات الدروس ثم اندرس الدين كغيرهِ الا عند الخاصة وقليلٌ ما هم فلم يبقَ الا التعصب يزداد عصراً بعد عصر وسنةً بعد سنة فكأن تلك العلوم كلها تقمصت الدين لباساً ثم استحال الدين الى تعصبٍ يقوى كلما ضعفت مدارك اهلهِ ويتأصل في القلوب كلما خلت من العلم فهو اليوم مجموع علوم الدنيا والآخرة والخلف من تلك العلوم باسرها والله يداول الايام بين الناس سبحانهُ لا معقّب لحكمهِ وهو الفاعل المختار

كسوف الشمس

اطّلعنا في المجلاّت الاوربية على عدة فصول في الكلام على الكسوف التامّ الذي حدث في ٢٨ من شهر مايو ووصف ما كان من احتشاد الراصدين في بلاد اسبانيا التي هي محلّ رؤية هذا الحادث النادر لان منطقة الكسوف التام تمرّ فيها فتجتازها من الطرف الى الطرف . وقد